المديح النبوي في شعر النصارى العرب

السيد/ أبوبكر. كى[١]
الدكتور/محمد عابد. يو.بي[٢]

الملخص

كانت بعثة الرسول صلعم فتحا جديدا للإنسانية وقد بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق. وقد أحبه جميع المسلمون. وكان الصحابة أشد حبا للنبي صلعم وتنافسوا في مدحه والإشادة بفضله. وقد نبغ منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير وغيرهم وبعد عهد الصحابة ازداد إقبال الناس في مدحه صلعم وتمجيد ماحوته هذه الشخصية الفذة التي أرسله الله رحمة للعالمين وصارت المدائح مصدر إلهام لدى الشعراء فالمدائح تتطور يوما فيوما وقد واكب كثير من الشعراء من المسلمين في مدح النبي صلعم وليس هذا أمر عجيب إن شخصية الرسول صلعم وأخلاقه موضوع إعجاب لدى المسلمين ولكن العجيب جدا إن كثيرا من الشعراء المسيحيين مدحوا النبي محمدًا صلعم مدحا يساوى مداح الإسلام وإن هذه القصائد من قبلهم تظهر أمام العالم شخصية جذابة للرسول صلعم والباحث يريد أن يأتي في هذه المقالة بعض الشعراء الذين أتوا بالعجائب في مدح النبي صلعم.

المديح النبوي في شعر النصارى العرب

وقد ملأ الكون بمدح النبي صلعم وقد قال العلماء والحكماء أحسن الأقوال وأطيب الآراء عن النبي صلعم. منهم المسلمون والكفار ومنهم النصارى واليهود ومنهم من يدين بالأديان ومن لا يدين بأي دين وكذا الشعراء والخطباء والأدباء والبلغاء كل بسطوا أمام العالم صفحة نيرة تعكس فيه شخصيته الفذة الجميلة التي حار البدر لحسنه.

والأمر الواضح وما استطاع لأحد أن يستر ويخفى الحقيقة التي شاهد في النبي صلعم رغم اختلاف دينهم وعقيدتهم. وإن العلماء الكبار من غير المسلمين عبروا من أحسن الأقوال عن النبي صلعم. وإن كثيرا من المخالفين الناقدين شهدوا بعد طول البحث شهادة الحق ونتقوا بالصدق وأعلنوا للناس كافة أن هذا النبي صلعم مبرأ من كل التهمة يذيعها بعض من أوربا وكذا هو المحفوظ من جميع الأباطيل والزلات التي افترى عليه أصحاب الهوى والفتن.[٣]

١ الباحث في قسم الماجستير والبحوث في اللغة العربية، كلية فاروق.
٢ مشرف البحوث والأستاذ المساعد، قسم الماجستير والبحوث في اللغة العربية، كلية فاروق.
٣ د. عبد المجيد البيانوني، نبي الهدى والرحمة، الطبعة الأولى، جدة، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٨م، ص:٨٤.

كفى للعالم ما قاله مايكل هارت عن النبي صلعم في كتابه المشهور، ويقول «إن اختياري محمدا ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ قد أدهش القراء. ولكن إنه هو الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستوين: الديني والدنيوي فهناك رسل وأنبياء وحكماء بدئوا رسالات عظيمة ولكنهم ماتوا دون إتمام هذه الرسالة.» [١]

وكذا الكاتب المشهور توماس كارليل يعاتب الذين يقولون بأن محمدا كذاب ويقول إن العار أن يصغى الإنسان المتمدن من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين أن دين الإسلام دين كذب وأن محمدا لم يكن على حق لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي صلعم ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمن لملايين كثيرة من الناس.

وقد يرى الناظر إلى هذا أن الذين مجدوا وأشادوا بفضله صلعم زمرة يخلو آراءهم من المجاملة والمداهنة وإنما أرادوا إظهار ما في هذه الشخصية من خيرات وحسان وهو القائل بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. والكتاب الذين كتبوا عنه والشعراء الذين مدحوه كل أضافوا في هذا الغرض الغزير الوفير. وكان من بينهم شعراء النصارى الذين أتوا بالإبداعات التي أعجب العالم وقد نظم الشعراء من المسيحيين المدح الذي يطرب السامعين ويحيي في قلوب المحبين حبات الحب والعشق نحو هذا النبي المصطفى صلعم.

وإن معظم الشعراء المسيحيين ينتمون إلى سوريا ولبنان ومصر. وإن أشعارهم تشابه أشعار الفحول الذين جاءوا بالمدح أحسن ما لديهم حتى إن أسماءهم واستعمالاتهم وأسلوبهم تضاهى عما قام به الشعراء القدماء من أتباع النبي صلعم وافتتاح بعض الخطباء في يوم الجمعة بأشعار هؤلاء الشعراء المسيحيين صار موضع إعجاب وتقدير لدى العام والخاص. [٢]

والشيخ عبد الحميد كشك حفظه الله أتى في خطبته أبيات الشاعر اللبناني النصراني «جورج سلستي» بمدح فيها النبي صلعم وهو الذي أجاد فيه إجادة في أسلوب رائع أنيق وقال:

«يا سيدي يا رسول الله معذرة إذا كبا فيك تبياني وتعبيري

ماذا أوفيك من حق وتكرمة وأنت تعلو على ظنى وتقديري»

ويزيد على ذلك

أشكو إليك ديارا كنت مرشدها ومرشدوها استكانوا اليوم للنير

وذى فلسطين أولى القبلتين لقد بيعت على يديهم بيع الجآزير

وكذا الأمر الذي وصل إليه اهتمام عشاق الرسول وهؤلاء الشعراء نظموا البردة كما عند الإمام

١ الشيخ محمد حريف، الفتح الأعظم في نظرة رسول الله، مكتبة الفتح، مصر، ص:٥٤.
٢ مؤمن الهباء، مجلة المجتمع، العدد١٩٧٦ ذو الحجة ٢٠١١/١١/٥، جمعية الإصلاح الإجتماعي، الكويت، ص:٤٢.

البوصيري وأحمد شوقي ومحمود سامي البارودي فالشاعر المسيحي المشهور ميخائيل ويردي نظم قصيدة طويلة بعنوان الذي بدأ به الشعراء المسلمين بنفس الوزن والقافية. والأغراض كلا الشاعرين يتفق تمام الاتفاق منذ الافتتاح إلى الختام.

ومطلع القصيدة عند ميخائيل ويرد بالاقتباس في البيت الأول. نالت رواجا حسنا لمن يحب النبي صلعم حيث يبدأ الشاعر قصيدته.

أنوار هادي الورى في كعبة الحرم فاضت على ذكر جيران بذى سلم

وأرسلت نغم التوحيد عن ملك كالروح منطلق كالزهر مبتسم

وفي الأبيات الآتية يدعو الشاعر أن يحب النبي حبا خالصا.

واجعل هواك رسول الله تلق به يوم الحساب شفيعا فائق الكرم

هذا رسول الهدى فارشف على ظمأ من ورده العذب عطفا شاق كل ظمى

كأنما قلبه ينبوع مرحمة مستبشر جدلان بالنسم

يا أيها المصطفى الميمون طالعه قد أطلع الله منك النور للظلم

وحّدت ربك لم تشرك به أحدًا ولست تسجد بالإعزاء للصنم.[١]

وبعد ما بين ما جاء به النبي صلعم من توحيد وآيات عظام إن الشاعر يصور أمامنا ما نفد الرسول بين أمته من عادات وأخلاق. وغرس الرسول صلعم فيهم العزيمة وقوة النفس التي أهلهم بالقيام بماهم الأمور أو صاروا خلفاء يسوس كسرى وقيصر. ومن مثلهم من عظماء الملوك!

ويقول هو

شرع على أقوم الأركان أسسه للعاملين نبي طاهر الشيم

عذى عقول الورى حتى أتاح لهم عيش النعيم ونقاهم من الإثم

وعلم العرب حتى ساد نسلهم هام الممالك وارتاحت لعدلهم

كأنما الشرع جزء من نفوسهم فإن هم وعدوا استغنوا عن القسم

يا أزهد الناس في الدنيا وفي يده خزائن الملك والأنصار كالخدم

عجبت كيف تعاني الجوع مرتضيا حظ الفقير ولم تلتذ بالتخم

١ مؤمن الهباء، مجلة المجتمع، العدد١٩٧٦، ذو الحجة ٢٠١١/١١/٥، جمعية الإصلاح الإجتماعي، الكويت، ص:٤٣.

أقول للمصطفى أعظم بما ابتدعت آيات ربك من خير ومن نعم

لو يتبع الخلق ما خلدت من سنن ولم يفتك الجهل والإعواز بالأمم

فيا نبي الهدى حييت من علم بالطهر متسم بالعدل مدعم

أحببت دينك لما قلت: أكرمكم أتقاكمو وتركت الحكم للحكم

«فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القول لا نفضوا من حولك» وجاء في هذه الآية رسم الشاعر في البيت الآتي.

وقلت إني هدى للعالمين ولم تلجأ إلى العنف بل أقنعت بالكلم

في دينك السمح لا جنس ولا وطن فكل فرد أخ يشدو على علم

الله أكبر والأكوان فانية ومن يلذ بجلال الله لا يضم

وهذ البيت المذكور أعلاه وصل بهذا الأسلوب العذب إلى أعلى مرتبة الجمال المملوء بالمعاني الأساسية للدين الإسلامي.

يا عبقري الورى الأمي هل سمعت من قبلك العرب وحيا غير منسجم؟

أياتك الغر إعجاز تنزه عن ند ليس دعي الحب كالسدم

كأنما الناس آلات مبعثرة أخرجت منها جميل اللحن والنظم

محمد رد من ضلوا وعلمهم حق النسائي اللواتي كن كالرمم

وفي البيت التالي إنه يدعو النبي صلعم كما هو عضو من أعضاء الأمة المسلمة

يا فخر أمتنا في الأرض قاطبة وسيد المصلحين العرب والعجم

والشاعر مارون عبود المسيحي هو الآخر الذي نظم قصيدة طويلة على طريقة نهج البردة وسجل الشاعر في بردته سيرة الرسول صلعم العطرة وغزوة أحد وفتح مكة وهو يعدد محاسن النبي صلعم وما أعجته عن الرسول الذي قال بعثت معلما ميسرا والمعلم بطل العالم وقائده. [١]

وإن هذا العمل الذي قام به هذا الشاعر أروع مثال للعالم المعاصر حيث تنافس بعضا ومن أبناء أوروبا والغرب لتشويه هذا النبي صلعم من رسوماتهم المسيئة وآرائهم القبيحة.

ويقول عن هذا:

١ مؤمن البهاء، مجلة المجتمع، العدد١٩٧٦، ذو الحجة ٢٠١١/١١/٥، جمعية الإصلاح الإجتماعي، الكويت ص:٤٣.

عشت يا بني عشت يا خير صبي ولدته أمه في رجب

أمه ما ولدته مسلما أو مسيحيا ولكن عربي

والنبي العربي المصطفى آية الشرق وفخر العرب

يا ربوع الشرق أصغى واسمعى وافهمى درسا عزيز المطلب

يا نبي اعتز باسم خالد وتذكر إن تعش أوفى أب

جاء ما لم يأته من قبله عيسوي في خوالي الحقب

فأنا خصم التقاليد التي القت الشرق بشر الحرب

بخرافاتهم استهزد وقل هكذا قد كان من قبلي أبي

ثم الشاعر حليم دموس للبناني ولد سنة ١٨٨٨ وتوفي ١٩٥٨ وله شعر رائع في مدح النبي صلعم ويقول:

أمحمد والمجد بعض صفاته مجّدت في تعليمك الأديانا

بعث الجهاد لدن بعثت وجردت أسياف صحبك تفتح البلدانا

ورفعت ذكر الله في أمية وثنية ونفحتها الإيمانا

مرحى لأمى يعلم سفره يبغاء يعرب حكمة وبيانا

إني مسيحي أحب محمدا وأراه في فك العلا عنوانا

والشاعر حليم دموس يصور أمامنا روح التسامح والتآلف بين هذين الدينين السماويين ويمجد عما جاء في القرآن عن عيسى بن مريم (على) وكذا ما جاء في الإنجيل عن النبي محمد صلعم. وهذه الملاحظة في الأبيات تساعد العالم المعاصر للائتلاف ونبذ الاختلاف الطائفية والدينية ويفتح أفقا جديدا يعيش أبناء الأرض في تعاطف وتآلف.

وهو يقول

تغنى عروس الشعر باسم محمد وهزى بنى الدنيا بسيرة أحمد

ولعمرك ما الأديان إلا نوافذ ترى الله منها مقلة المتعبد

فألمح في القرآن عيسى بن مريم وأشهد في الإنجيل روح محمد

ثم الدكتور شبلي شميل وليس هو من أهل الأدب والشعر والدين ورغم هذا إنه نظم قصيدة رائعة

مبدعة. والدكتور تصور في قصيدته عظمة النبي صلعم وقدره وجلاله وهو يصرح إنه إن لم يكن يوافق به في دين الإسلام بل لا يستطيع أن يكتم عما في قرآن الكريم من آيات ومعجزات.

دع من محمد في سدى قرآنه ما قد نجاه للحمة الغايات

إني وإن أك قد كفرت بدينه هل اكفرن بمحكم الآيات

أو ما حوت من ناصع الألفاظ من حكم روادع للهوى وعظات

وشرائع لو أنهم عقلوا بها ما قيدوا العمران بالعادات

نعم المدير والحكيم وإنه رب الفصاحة مصطفى الكلمات

رجل الحجا رجل الأساسية والدها بطل حليف النصر في الغارات

ببلاغة القرآن قد خلب النهى وبسيفه أنحى عن الهامات

من دون الأبطال في كل الورى من سابق أو لاحق أو آتى

خليل مطران شاعر القطرين المشهور بين الأدباء والطلاب يعاتب عن الذين يفندون عن النبي صلعم وما جاء من الحق المبين.

هذا هو الحق والإجماع أيده فمن يفنده أولى بتفنيد

وكذا إلياس قنصل وهو من الشعراء المهجريين المشهورين. وقد أعجبه خلق النبي صلعم وثباته على المبدأ مهما سعى الطغيان أن يتغلب عليه. ويقول:

إني ذكرتك يا محمد والعدا يتألبون تألب الذؤبان

إن كنت تبغى أن تكون مسوّدا جاءت إليك سيادة الأقران

والشاعر بالرّغم أنه مسيحي يظهر أمام العالم ضعفه لبيان ما في النبي صلعم من الفضائل والكرم والعز والرفعة

يا من يثير حماستي بكماله عذرا إذا شاهدت ضعف لساني

والشاعر القروي رشيد سليم الخوري نظم قصيدة جميلة بمناسبة المولد النبوي باسم عيد البرية ويقول فيها

عيد البرية عيد المولد النبوي في المشرقين له والمغربين دوى

فإن ذكرتم رسول الله تكرمة فبلغوه سلام الشاعر القروي

وكذا عبد الله يوركى حلاق صاحب ورئيس تحرير مجلة الصفاء السورة جاء بقصيدة عنوانها «إني مسيحي أجل محمدا» ويقول:

قبس من الصحراء شعشع نوره فجلا ظلام الجهم عن دنيانا
ومشى وفي أدرانه عبق الهدى وأريج فضل عطر الأكوانا
بعث الشريعة من عميق ضريحها فرعى الحقوق وفتح الأزهانا
إني مسيحي أجل محمدا وآراه في سفر العلا عنوانا[1]

ويسأل الشاعر وصفى قرنفلى الذين يلومونه في مدح النبي صلعم ولا يحس أي عار ليمدح هذه الشخصية العظيمة.

أو عار على فتى يعربي أن تغنى بالسيد العدناني

ثم الشاعر شبلى ملاط أتى بالأبيات الرائعة ويقول فيها ولا يساوي النبي صلعم في فضله أحد

من للزمان بمثل فضل محمد وعدالة كعدالة الخطاب

والشاعر المشهور جاك صبري شماس صاحب الديوان المعروف باسم «هواجس في أعماق شاعر» بقصيدة «أوراق اعتمادي» ويقول في بدايتها

إني مسيحي أجل محمدا وأجل ضادا مهدها الإسلام

وفي الختام أجيئ بقصيدة الشاعر السوري عطا الله مخامس ويدعو إلى الوحدة التي تعيش به أعضاء هذا الجيل بدون عناء ومشقة ويقول:

يا مسلمين ويا نصارى يعرب عودى إلى عهد الصفاء وسلموا
أنتم جناحا أمة منكوبة فخذار ثم حذ الآن تتقسموا

الخاتمة

وهذه المقالة ترسم صورة واضحة عن شعراء النصارى العرب الذين قدموا نموذجا رائعا عن خاتم الأنبياء محمد صلعم، وإن هؤلاء الشعراء رغم اختلافهم في دينهم ما كتموا الحقيقة التي رأوا في شخصية النبي صلعم وإن الإبداعات التي جاءت من قبلهم صارت ذخرا للشعر العربي وآدابه.

١ أحمد بن حجر آل بوطامي، الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب، الطبعة الثالثة، مكتبة الثقافة، الدوحة، قطر، ١٩٧٨م، ص:١٨٠.

المصادروالمراجع

١. د. عبد المجيد البيانوني، نبي الهدى والرحمة، الطبعة الأولى، جدة، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٨م.
٢. الشيخ محمد حريف، الفتح الأعظم في نظرة رسول الله، مكتبة الفتح، مصر.
٣. مجلة المجتمع، العدد١٩٧٦ ذو الحجة ٢٠١١/١١/٥، جمعية الإصلاح الاجتماعي، الكويت.
٤. أحمد بن حجر آل بوطامي، الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب، الطبعة الثالثة، مكتبة الثقافة، الدوحة، قطر، ١٩٧٨م.